مثيرات إنشاء النص الأدبي
(شعر اليهود وما قيل فيهم شعراً في الأندلس أنموذجاً)
Literary text creation stunts

Jewish poetry and in exchange for poetry in them In andalusia, amodel

TOdebate the primacy

أ.م. د. سمير جعفر ياسين
الجامعة المستنصرية / كلية الآداب/ قسم اللغة العربية
yaseens72@yahoo.com

Asst. prof.sameer jafaar yaseen

Al-Mustansiriyah University / College of Arts / Department of Arabic Language

المستخلص

هذه الدراسة تهتم بالنصوص الأدبية للشعراء اليهود في الأندلس وشعر الشعراء الأندلسيين الذين نظموا القصائد فيهم، وبيان أهم المثيرات التي كانت سببا في نشأة تلك النصوص ،فجاء البحث تحت عنوان (مثيرات إنشاء النصوص الأدبية شعر اليهود وما قيل فيهم شعرا في الأندلس أنموذجاً)، وتأتي أهمية هذا الموضوع كونه يبين مرحلة مهمة من مراحل اليهود الذين عاشوا في الأندلس بعد دخول الفاتحين لها، ورصد وضعهم الاجتماعي والسياسي والثقافي فضلا عن تحليل القصائد الشعرية التي نظموها ، ومن ثم المؤثرات الايجابية والسلبية التي أثرت فيها .

وقد قسّم البحث على خمسة محاور، يسبقها التمهيد الذي تناول جانبا مختصرا عن حياة اليهود في الأندلس، كان المحور الأول تحت عنوان الإيحائية النصية، والمحور الثاني تحت عنوان التحول النصي،

أما الثالث فكان يحمل عنوان اللغة الشعرية على حين جاء المحور الرابع باسم الإشارات في النظائر الدلالية، والسياق النصي كان المحور الخامس والأخير، وقد اختار الباحث منهجا ملائماً للدراسة وهو منهج تحليل الخطاب للنصوص الأدبية اليهودية وربطها بالمراحل التاريخية والأحداث المتشابكة سواء الايجابية منها أو السلبية.

الكلمات المفتاحية: (اليهود ، أدب الأندلس ، بلاغة)

Abstract:

This study is concerned with the literary texts of the Jewish poets in Andalusia and the poets of Andalusian poets who organized poems in them, and the most important stimuli that were the cause of the origin of those texts, the research came under the title (stimuli of the creation of the literary text, the poetry of the Jews and what was written in Andalusia as a model) On the five axes, preceded by the preface which dealt with an important aspect of the life of the Jews in Andalusia, the first axis under the title of textual suggestion, and the second axis under the title of textual transformation; Wally The researcher chose the method of analyzing the discourse of Jewish literary texts and linking them to historical stages and intertwined events, both positive and negative.

Key word: Jewish / andalusia poetry / eloquence

المقدمة:

إنّ دراسة النصوص الأدبية التي نشأت في الأندلس تعطي دافعاً للباحثين بما تحمله من دلالات خطابية تثير المتلقي، وهي تتمحور في أهمية ما يُدلي به المخاطب في بيان وضع ما بهدف إنجاز فعل الخطاب داخل النص الأدبي، ولهذا كان اختيار الباحث عنوانا لبحثه (مثيرات إنشاء النص الأدبي، شعر اليهود وما قيل فيهم شعراً في الأندلس أنموذجاً)، ولعل هذا الاختيار جاء لينفض الغبار عن ثروة أدبية شعرية ليهود الأندلس لم يتطرق إليها الباحثون بالدراسة أو التحليل.

وتنبع أهمية البحث في أنه يدرس مرحلة مهمة من مراحل اليهود الذين عاشوا في الأندلس، من بعد دخول الفاتحين لها، ورصد وضعهم الاجتماعي والسياسي والثقافي، بحسب إنتاجهم الأدبي على مدار سنين خلت، وحتى بعد سقوط المدن الأندلسية وسقوط غرناطة، فضلاً عن مواقفهم الإيجابية منها أو السلبية.

وقد رجع الباحث في تسليط الضوء على حياتهم ووضعهم الاجتماعي والثقافي إلى كتب التاريخ التي رصدت ذلك عنهم، ومن أهم تلك الكتب تلك الدراسة المتميزة للدكتور خالد يونس الخالدي في كتابه (اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس)، والذي فتح للباحث آفاقاً مهمة في معرفة حقيقة اليهود الذين عاشوا في الأندلس تحت مظلة حكم المسلمين.

لقد قُسّم البحث على خمسة محاور مشفوعاً بتمهيد قدم نبذة مختصرة عن حياة اليهود في الأندلس ، جاء المحور الأول تحت عنوان الإيحائية في إنشاء النص ،وهي تزيده تألقا وإبداعاً وتنامياً، على حين جاء المحور الثاني تحت مسمى التحول ،ونعني به التحولات الجمالية والفنية التي تستثير المتلقي في رفد الخطاب الأدبي داخل النص ،فيما اضطلع المحور الثالث ببيان أهمية اللغة الشعرية في إثارة النصوص الشعرية وهي أظهرت قيمة اللغة العربية عند يهود الأندلس في نتاجهم الشعري، أما المحور الرابع فوقع تحت عنوان الإشارات في النظائر الدلالية ، في إشارة إلى الدلالات النصية التي تغلف النص ،وعلاقة تلك الدلالة بمجمل النص، فيما جاء المحور الخامس والأخير لبيان السياق النصي وهو ماساهم أيضاً في إنشاء النصوص وجماليتها عند شعراء اليهود وحظوظ المتلقين في فهم الرسالة من خلال هذا السياق ،ثم اختتم البحث بأهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

لقد اختار الباحث المنهج التحليلي في بيان الخطاب الأدبي داخل النصوص الشعرية وربطها بالغرض الذي نشأت فيه، ويبقى كل علم يشوبه النقص وحسبي أني اجتهدت فيما تهيأ لي من مصادر ومراجع وأفكار وآراء، أسهمت في رفد البحث ومحاوره، وتقريب الصورة للمتلقي فيما طرح من تحليل للشعر، وربطه بواقع اليهود في الأندلس، فضلا عن شعر أولئك الشعراء الذين عاصروا اليهود وقالوا فيه شعراً بيّنوا فيه مرحلة تاريخية مهمة من مراحل وجودهم في الأندلس.

التمهيد:

عاش اليهود في الأندلس قبل أن يدخلها المسلمون فاتحين ،وقد كانت حياتهم في ظل الصليبيين حياة صعبة مريرة يشوبها الضنك والظلم والاضطهاد ،حتى جاء المسلمون في الأندلس فتغيّرت حالهم وانصلحت أحوالهم وُردت حقوقهم وأرجعت حريتهم التي سُلبت منهم ، ومارسوا طقوسهم في الأندلس فأضحى عيشهم بلا قيود أو مضايقات تذكر فهم أهل الذمة ، ولما فتح المسلمون الأندلس بقيادة طارق بن زياد زاد ذلك في اليهود سعادة وسروراً ؛ لما كانوا يعانونه من اضطهاد المسيحيين لهم ،وقد كانت لهم الحرية التي فقدوها في ظل حكم الصليبيين ،حتى أن المسلمين في الأندلس قد ((منحوهم حريات كانوا لا يحلمون بها في تلك البلاد التي سامتهم سوء العذاب، منحوهم حرية التنقل في أنحاء البلاد ،والتجارة بها وألحقوهم بالوظائف العامة، وأعادوا لهم أراضيهم وأملاكهم التي صادرتها الحكومات السابقة))، (عبد المجيد،محمد بحر،، 1970م، صفحة 20).

لقد كان قانون الدولة كما سرى على المسلمين فهو يسري على اليهود أنفسهم فلا فرق بين مسلم ولا يهودي كلهم أما القانون سواء، وكانت هذه السمة التي اتسم بها المسلمون الذين حكموا الأندلس مثار إعجاب اليهود أنفسهم، حتى أسلم بعضهم لما رأوا فيه إنصافهم من الظلم، فلهم الحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها. غير أن اليهود ((لم يقدروا إحسان المسلمين إليهم، وكانوا يشاركون النصارى الأسبان في التنكيل بمسلمي المدن الأندلسية المحتلة ويدعمونهم بالمال في حربهم ضد مسلمي الأندلس، ويشاركون في القتال معهم في بعض الأحيان)) (الخالدي،د.خالد يونس،، 2002م، صفحة 11). على أنهم لم يكونوا محبوبين لدى الغرب، بل كانوا منبوذين ومحتقرين، وذلك دليل أفعالهم المشينة، وطبيعتهم تلك موغلة في القدم ((ففي القرون الوسطى قام اليهود بذبح بعض الأطفال الأبرياء؛ لأداء بعض الطقوس التي لها طابع سحري ربما بواعز من الكتب السحرية ذات الطابع الديني مثل الزوهر والتلمود)) (عبد المجيد،محمد بحر، 1970م، صفحة 12) .

لقد كان للثقافة الأندلسية الإسلامية صدى واسع في اليهود الذين عاشوا في كنف الأمصار والمدن الأندلسية، حتى أنهم تأثروا تأثراً واضحاً بتلك الثقافة ،وعشقوا اللغة العربية وكتبوا بها شعراً ونثراً ، فأبهرهم سحرها وما اتصفت به من أساليب بلاغية متنوعة وسبك نصي، وقد هيأ لهم هذه الأجواء من الأمن والاستقرار النفسي والعقائدي إلى بزوغ عدد من أولئك النحويين الذين كانت لهم دراسات في النحو العبري ،وكان من أشهرهم مناحيم بن ساروق الطرطوشي (298هـ- 349هـ)،و من أهم أعماله المعجم العبري الذي يسمى (محبريت) أي التفسيرات، (ينظر: هنداوي،إبراهيم موسى، 1963م، صفحة 10)، ((وقد أنجبت الطائفة اليهودية في مالقة الشاعر العبري الشهير سليمان بن جابيرول ،الذي ولد فيها حوالي سنة (412هـ)) (هنداوي،إبراهيم موسى، 1963م، صفحة 134) .

وقد ارتأى الباحث أن يستقري تلك النصوص الشعرية التي قرضها يهود الأندلس، وتحليلها، وبيان أهم المؤثرات التي كانت سبباً في إنشائها، وأهم أغراضها ومعانيها التي بزغت منها.

المحور الأول: الدلالة الإيحائية للنص

إنّ إنشاء أي نصّ أدبي لابد من أن يتضمن قوالب قد تكون جاهزة أو من بنات أفكار المنشئ نفسه، وهي في الوقت نفسه تختزن في داخلها بعض الجوانب المثيرة التي تزيده تألقا وتناميا وإبداعا، وهذا نابع من أن منشئ النص ذو طاقة متجددة حيوية، وإيجابية لا تقتصر على موضوع بعينه، فهو يثير المتلقي بتنوع تلك الطاقة الإيحائية والتي لها دلالات جمالية جاذبة تسهم في تنامي النص وتقويه.

ولكي يكون النص ذا قيمة وذا مغزى ويحظى بتلك الأهمية ،فلا بد أن يستفز في المتلقي قوة استلهام ما يوحيه النص من معنى، وهذا بدوره يثير الذهن ويشحذ الفكر في تخطي حاجز المعنى السطحي إلى الانغماس في المعنى المقصود، إذ إنّ ((المنتج الفني الأصيل يملك سطوته الجمالية عبر الإيحاء التوالدي ،أو الإيحاء

المتنامي دوما، وهذه السلطة تتنامى تدريجيا بتنامي المنتج الفني إيحائيا)) (شرتح،د.عصام ، 2002م، صفحة 13)، وهذا الإيحاء التوالدي أو المتنامي هو الذي يفهم منه النص الأدبي فهما يقرب الفكرة ودلالتها من خلال خيوط نسيج المعنى عبر سلاسل متقاربة ومتلاحمة تعضد النص وتهيئه للمتلقي على طبق من ذهب، فيؤسس بذلك منهجا له يعرف به من غيره من منشئي النصوص الأخرى ،وتبرز هويته الأدبية وقدرته وملكته الفذة عبر ما يعرف (بالتلاقح) ليحقق اللذة الجمالية ((وهي لذة مركبة لكل من الجسد والروح نصيب فيها)) (برتليمي،جان، 2011م، صفحة 380) وهذه اللذة هي التي ترشد المتلقي إلى الإدراكات الحسية ،والتي لا تقف عند حدود معينة، وهي تصنف وتبوب تبعا للحركات الجمالية التي يطلقها الجسم ، وهي بدورها تتدخل في الموسيقى ، وهي ليست غريبة عن الانفعالات التي نشعر بها مثل السرور (برتليمي،جان، 2011م، صفحة 381)ويقابله انفعال الحزن أو التفجع أو التحسر.

لقد أدى الشعر دوراً في قيمة الإيحاء من حيث هو منتج فني إبداعي، وضمن حدود الدراسة يظهر لنا ما قيل من شعر في يهود الأندلس الذين عاشوا في كنف المسلمين، وارتسمت لهم الحياة جمالا وبهاء، وقد أدت الوظيفة الإيحائية دورها عند شعراء الأندلس أولئك الذين رصدوا ما لليهود من دور في شتى الميادين ،ونقلوا لنا ما كان من طبائع اليهود ، ونواياهم وفكرهم رصدوها شعرا، جاء عن السلفي قوله: ((أنشدني أبو حفص العروضي الزكرمي بإفريقية مما قاله بالأندلس ،وقد طولب بمكس كان يتولاه يهودي:

يا أهـــل دانيـــة لقد خـــالفتم حـــكم الشـــريعة والمـــروءة فينا
مـــالي أراكم تأمرون بضـــدها أمرت به ، تـــرى نسخ الإلـــه لدينا
كنا نطـــالب لليهود بجـــزية وأرى الـــيهود بجـــزية طلوبنـــا))

(ابن سلف،أحمد بن محمد، 1963م، الصفحات 37-38)

وهنا تفيض هذه الأبيات بدلالاتها وإيحاءاتها ولاسيما استثارة المتلقي في إظهار سطوة اليهود وتسلطهم (*)،وفي الأندلس وركوبهم ظهر المسلمين ،ويظهر هنا عمق الإيحاء من خلال لفظة (الجزية)، وهي تدخل ضمن النص الديني الذي يوحي بهيمنة المسلمين على أهل الذمة من اليهود والنصارى ،والقوة التي كان يمتلكها المسلمون آنذاك، فكان لضعف المسلمين وخورهم وانهيار الممالك الأندلسية سببا في قلب المعادلة لدى الشاعر وليس العكس، وهنا ظهرت الإيحائية بشكل ملحوظ تضفي على النص قيمة للمعنى وإثارته من خلال تلك التدفقات المشحونة في مسار بعث رسالة مهمة للمتلقين بأهمية الحدث .

وفي قراءة لنص شعري تتداخل فيها الصور الإيحائية مع التخييلات الكاذبة والتي تكون سبباً في إثارة النص الشعري والخروج عن المألوف، وقد أكد هذه الحقيقية د.محمد مفتاح في حديثه في هذا الشأن بقوله: ((فقد يأتي بتخييلات حسنة ،وقد يأتي بتخييلات فاسدة ،ومهما يكن فإنّ الشعر مبني على الخيالات الكاذبة)) (مفتاح،د.محمد، 1994م، صفحة 37)،وهذه قد كانت سنة الشعراء بعامة والشعراء الأندلسيين خصوصاً، وفي ظل النفاق الحاصل مع اليهود ،ومحاولة التقرب منهم وكسب رضاهم،فهذا ابن خيرة القرطبي المشهور بالمنفتل والذي نافق لإسماعيل بن نغرلة اليهودي، وقد مدحه في قصائد متعددة منها قوله: (الشنتمري، 1997م، صفحة ق1م2، 762).

قـــرنَ الفضـــائل والفواضـــل فشأي الأواخـــر والأوائـــلِ

فمن الإيحاءات المبنية على التخييلات الكاذبة الإتيان بصيغة المبالغة على وزن فواعل وهي(صيغة منتهى الجموع) في قوله: (الفضائل ،والفواضل) في الشطر الأول و(الأواخر والأوائل) في الشطر الثاني، فالفواضل لا يمكن أن تكون للفضائل ،وهي صفة لا يتحلى بها اليهود لأنهم قتلة الأنبياء وليس لهم ولافضيلة واحدة ، وهو إيحاء بصدق المعنى الظاهري ،والحقيقة غير ذلك إذ ((إنّ الدلالة المفهومية مقدمة على الدلالة الصريحة إذا كانت هذه مما لا يقبل العقل والنقل ...)) (مفتاح،د.محمد، 1994م، صفحة 35)، أما قوله (الأواخر والأوائل) فهنا تتداعى حجم المسافة بين الإيحائين وهما وكأنهما سورين يسور المعنى، فلو قلب اللفظين لما فهم المعنى المقصود، ولضاع الهدف المنشود من المقال ،فالمقام هنا يقتضي من الشاعر المبالغة لأنّ الأمر آل إلى اليهود آخراً ولم يألوا إليهم أولاً، ثم جاء بالأوائل رديفاً للفواضل من حيث الإيقاع الموسيقي وتمام قافية اللام المكسورة ، وهنا تأتي إجادة الشاعر في حسن اختيار المعنى واللفظ معا في مطلع قصيدته. وفي قصيدة أخرى يمدح فيها ذوي المناصب من أولئك اليهود الذين كانوا يجوبون غرناطة واستوطنوا بها ، إذ يقول فيها: (الشنتمري، 1997م، صفحة ق1م2، 764).

بـــــدور ولكنـــا أمنـــا ســـــرارهــــا   بحـــــور ولكن لانرى لها بـــــراً
غيـــوث إذا ما المـــحل شـــبّ ببلــدة   كهوف إذا جـــاءت بنـا أرضه كبـــرا

وهنا تبرز قيمة المعنى الإيحائي ((وذلك في كونه يعمل على استنباط الدلالة الكامنة في المفردة اللغوية لما تؤديه هذه الأخيرة من وظائف ،بحيث يستشف قدرتها على الإيحاء بناء على ما تميّز به من شفافية معينة)) (مطهري،د.صفية، 2003م، صفحة 14)،وإذا ما رجعنا إلى لفظتي (بدور) و(بحور) وجدناهما ينتميان للوزن الصرفي(فعول) نفسه ، وهو جمع كثرة ليستثير في المتلقي معنى واسعا لا تحده قيود لأنّ (البحر) في دلالته على عمق مياهه وفضائه الممتد الواسع من فيض ذلك البحر ،ولأنه عظيم فليس له بر ينتهي إليه ،كما الممدوح في جزله وعطائه ،فإن لا حدود لها أبداً، هذا المثير هو الذي قاد الشاعر لإنشاء نصه ، والذي دعا الشنتريني إلى ذمه ومقته بقوله : ((وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصل، وقبحه وقبح ما أمل)) (الشنتمري، 1997م، صفحة ق1م2، 764)كما أنه في اتهام لابن خيرة القرطبي بغلوه في القول في خروجه عن المألوف واستنزال المدح منزلة لا تليق به بوصفه مسلماً . ومن هؤلاء المنافقين أيضاً والذين أسرفوا في مدح اليهود وتجاوزا الحدود في ذلك (ابن الفراء الأخفش بن ميمون)، وقد قال عنه المقري التلمساني: ((بل هو من حصن القبذاق، من أعمال قلعة بني سعد، وتأدب في قرطبة ،ثم عاد إلى حضرة غرناطة، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي ، وهو القائل:

صـــابح محيـاه تلق النـــجح في الأمل   وانـــظرْ بناديهِ حســـنُ الشمسِ في الحملِ
مــا إنْ يـــُلاقي خليـــلٌ فيـته خـــللٍ   وكلمـــا حـــالَ صـــرفُ الـــدّهرِ لم يُـــحلِ))

(التلمساني، 1995م، صفحة ج3، 346).

إنّ هيكلية الإيحاء النصي هنا تتفق وموضوع النص الذي يؤشر للبناء المنتظم للجمل والتي تبدأ بفعلي الأمر في صدر البيت،(صابح) وعجز البيت (انظر)، إذ أن لهما دلالتهما القوية والفعّالة في إحياء الخطاب داخل النص، وهما يصفان جوانب معلومة ومحددة ويسهمان في تطور الفكرة داخل أجزاء النص ، وقراءة النص تقتضي البحث عن ظروفه التي كانت سبباً في إنشائه وإثارته من خلال العلاقات السببة للوصول إلى النتيجة وتشخيص نوع الخطاب الذي اختاره الشاعر لبيان صفات الممدوح .

المحور الثاني: التحول النصي

لاشك أنّ لكل نص أدبي تحولات جمالية وفنية تستثير المتلقي وتكون سبباً في رفد الخطاب الأدبي ،فضلاً عن استقبال هذا الفن للعديد من الطاقات الإبداعية التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى متغيرات جمالية سواء كانت تستمد أهدافها وقيمها من (البيئة) التي يعيش فيها منشئ النص والزمن الذي عاصره ،وهما بدورهما يكونان مستثاراً للفن عموماً، وهذا التحول الذي يفضي إليه النص الجمالي بما يحمله من دلالات يخدم بنية المنتج الفني وهو ((ليس منعزلاً، بل إنه يرتبط بألف حقيقة أخرى تحدد حضارة ما ،وثقافة ما ...يرتبط اختصاراً بمجموعة عوامل يعتمد عليها وتشرح مغزاه ،ولكي نفهم العمل الفني ...يجب أن تتمثل لدينا في دقة تامة ،الحالة العامة للتفكير ، وعادات العصر الذي ينتمون إليه لأنهم يرتبطون ارتباطا وثيقا بهذه الملابسات ،ويتحدد العمل الفني بملابسات ،وهي الحالة العامة للتفكير والعادات المحيطة)) (برتليمي، 2011م، صفحة 35)هذه التحولات ارتبطت ارتباطاً شديداً بالتحولات الاجتماعية التي عاشها الأندلسيون والتي كان لها الأثر البالغ في تشكيل الوعي الجمالي عند شعراء تلك المرحلة المهمة التي صبغت شعرهم بصبغة خاصة تمثلت بتحول المعنى ، وبتحول الفكر وبتحول الاتجاه والنسق الذي سار عليه أسلافهم المشرقيين ، وهي تجربة انفرد بها شعراء الأندلس وشعراء اليهود خاصة الذين كانت في أشعارهم ذلك الميل الشديد لانتقاء ألفاظ معجمية للعربية الفصحى، وكانت سببا في تحولهم للتعبير عن مشاعرهم ،هذا التحول كان سبباً في إنشاء نصوص شعرية امتازوا بها ،ولأنّ النص وإنشاءه يستوجب أن يتضمن دلالات تحيط به فهو ((وحدة دلالية ،وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص أضف إلى هذا أن كل نص يتوفر على خاصية كونه نصا ًيمكن أن يطلق عليها (النصية))) (خطابي،د.محمد، 1994م، صفحة 13)،ولابد للنص من أن يلتحف بمجموعة من الوسائل اللغوية والتي تسهم بشكل فعّال في إيجاد النصية حتى تتحقق وحدته الشاملة معتمدا في ذلك على اللغة من خلال ذكر عناصرها والتعريف بمفرداتها بما يتيح فتح مجال للتأويل ،ولنقرأ قول أبي محمد بن الياسمين عبد الله بن حجاج الإشبيلي يهجو واحدا: (الإبياري،إبراهيم، (د.ت)، صفحة 46) .

يا أعـرق الناس في نسل اليـــهود ومن تأبـــى شمائـــله التفصـــيل للجـــملِ
خذها بحـــكم اجتـــماع الذم واحدة تغني عن النـــعت والتـــوكيد والبـــدلِ

هذا التحول في السياق اللغوي يظهر في الوسيلة التي حققتها الجمل والتي أظهرت النص بقيمته الجمالية ،وقد أثارها غرض (الهجاء) المفضي إلى نعت المهجو بصفات أدخل فيها القيمة اللغوية وتظهر في (الذّم)،(النعت)،(التوكيد)،(البدل) وهي تقابل (التفصيل للجمل) أما لفظة(أعرق) فهي ترمز إلى عمق الدلالة في أصل المهجو لأنّ العرق له جذوره الموغلة في قدم النسل ،وهنا قمة التحقير عندما عانق الشاعر بينها وبين لفظة(اليهود) فحط من شأنهم باجتماع صفات لا تليق إلا بهم ، لا تليق بغيرهم ،وهنا تظهر قيمة إنشاء النص في التحول بالمعنى من الجميل إلى القبيح ،ومن أصل النسب إلى أدناه وأحقره . ومنه أيضاً قول أصبغ بن محمد القرطبي(ت505هـ) يهجو أحد معاصريه: (الأصفهاني،العماد، (د.ت)،م4،ج2،ص 242).

لو إلينـــا يـــكون دفنـك حيـــا لدفنـــاك في قبـــور اليـــهود

الحدث الكلامي الذي انطلق منه النص الشعري في دلالة المعنى المقصود منه إزالة الوهم والتحول من المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن، الذي لا يعوزه سوى الاندماج بين فكرة الموت المقابل للحياة ،وفكرة القبر المقابلة (للدفن) ،وتعاضد الفكرتين توحي بمبدأ(الدفن) ، وهو لا يكون إلا للأموات وليس للأحياء لأنّ الحي هنا وكأنه بجسد ه فقط وهو ميت بالمعنى ،وهنا تأتي قيمة التحول ، أما (قبور اليهود) فالقصد من دلالتها هنا تتمحور في قضية (المغضوب عليهم) التي ذكرت في القرآن الكريم أولئك الذين أبغضهم الله وأبغضهم الناس ،وكذا حال المهجو فيهم مقبوراً، فإنشاء النص هنا اتكأ على الفهم المستنبط للمعنى ، وترك التأويل للمتلقي فيكون جاذباً له ،ولو أزاح الستار عن المعنى وأظهره كما هو لما حقق غايته في الانتقاص من المهجو، وهنا تظهر قيمة الأقنعة المحيطة بالنص الشعري ، والتي فسحت المجال لإثارة المتلقي، ولفت انتباهه من خلال توظيف الفكرة البسيطة في المعنى المراد ،وهي فكرة خفيفة رشيقة قريبة إلى طبع الإنسان بعيدة عن التكلف والإسفاف.

ومنه أيضاً تظهر مثيرات النص الشعري في غرض الهجاء والذي يظهر فيه غضب المسلمين وامتعاضهم من اليهود، قول الشاعر جمال الدين أبي عبد الله محمد بن علي المقرب (ت629هـ): (العيوني،ابن المقرب، 1963م،ص411) .

من كل مغلـــول اليديـــن عند النـــدى فـــاق اليـــهود لآمـــة وغـــلولا

وهنا يظهر التحول في المعنى من الكرم العربي الذي امتازوا به إلى (الغلو) والتقتير وأي غلو إنه غلو اليهود الذي يعقبه اللؤم، قال تعالى : ((وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان)) ،(المائدة،الآية64) ،وقيمة المعنى تزداد قوة وسبكاً بمجيء لفظة (الغلو) التي ضمّنها الخطاب الشعري والذي عالج صفة من صفات اليهود المنبوذة والمستهجنة عند المسلمين في الأندلس وقد كانت سبباً من أسباب إثارة النص الشعري هنا.

وقد يأتي التحول في بعض النصوص؛ لبيان اتجاه الشاعر فيشير إلى لفظة ينطلق منها كي يحدد نهجاً ينتهجه في حياته يخالف فيه نهج قومه، وفي ذلك استثارة واضحة للمتلقي بتحوله إلى اليهودية، نطالع في هذا الشأن بيتين لأبي الحسن بن الزقاق أحد كُتاب مملكة بلنسية في غلام يهودي قوله: (المغربي،ابن سعيد، (د.ت)،ج2،ص 328).

وحبَّبَ يومَ السبتِ عنديَ أنـــهُ ينادمـــني فيه الذي أنا أحببـــتُ
ومـــن أعجب الأشياء أني مسلمٌ حنيفٌ ولكن خيرُ أياميَ الســبتُ

فانطلق الشاعر من يوم (السبت) الذي هو رمز لليهود يتصل بعقيدتهم التي تقضي بتعطيل حياتهم الدنيوية والالتجاء إلى العبادة تلك السمة التي اتسم بها اليهود، وعرفوا بها على مرّ التاريخ ،وعجبي على هذا التحول المزدوج من قبل الشاعر الذي اتهم الأيام كلها ورفضها إرضاء لرغباته في منادمة غلامه حتى أحب يوم السبت وفضله على سائر الأيام ، ولكنه يأبى التخلي عن إسلامه الحنيف ليبقي على حميمة العلاقة بينه وبين دينه، وتظهر فائدة النص في وظيفته في تفاعل المتلقي مع حالة من التواصلية من خلال الشعور بذلك التحول بين الأحداث ضمن وظيفة ترفيهية استمتاعية، ودليل ذلك ربط النص بفعل (حب) في قوله :(حبب)و (أحببت) وكلاهما يدلنا على تلك الحالة الشعورية المتضمنة فاعلية المناسبة من الالتزام بالحدود إلى نزع القيود.

المحور الثالث : اللغة الشعرية

وتظهر اللغة الشعرية بوصفها غرضاً آخر من مثيرات النص الأدبي ؛ فقد كان لليهود فيها حصة من شعرهم في الأندلس ،والتي بزغت قيمة اللغة عندهم وتحولهم من حبهم للغتهم إلى حبهم للغة العربية التي أظهروا فيها عقد الجمان من الوصف والتشبيه ومعاني البيان والبديع ،وكان لنسائهم الحظوة في هذا الشأن ،وهو يدل على تمكنهن من الشعر العربي في الأندلس ،ومن هؤلاء الشاعرات (قسمونة بنت إسماعيل اليهودي)، والتي أخذت نصيباً وافراً من تعليم اللغة العربية ،وينطلق لسانها وهي تقول شعراً تخاطب به أباها في رغبتها في الزواج وقد بلغت أوانه، حتى أنها من حسرتها وتأسفها على جمالها حين نظرت في المرآة ،فقالت في ذلك: (التلمساني، 1995م، ج5،ص76-77).

أرى روضــة قد حــان قطـــافها ولست أرى جانٍ من يمـدّ لها يـَـدَا
فوا أســـفا يمضي الشبابُ مضيعا ويبقـــى الذي ما إنْ أســـميه ِمفـــردا

وكأنها في وصفها قد شربت العربية من منبعها المشرقي ورضعت لبن نوقها، وتلك الألفاظ الجميلة البليغة في نسجها والمعاني الرقيقة التي تفصح عن لسان بليغ فصيح نقرأ لها في موضع ثان قولها: (التلمساني، 1995م، ج5،ص77).

يا ظبية ترعى بـــروض دائمـــا إنـــي حكيتكِ في التـوحُشِ والحَـورْ
أمسى كلانا مفرداً عن صـــاحبٍ فلنصطبـــر أبـــداً على حُـكم القَــدرْ

وهنا تظهر البراعة اللغوية في تناسق الكلمات تناسقاً محكماً مشفوعاً بالتعبيرات التي أحكمت النص وقوته وألبسته رداء تشكيل النسيج اللغوي، فالفعل الماضي (أمسى) ((وظف لخدمة غرض السرد ،من وصف للمكان والزمان والأشخاص ،وتقرير الوقائع والأخبار)) (قياس،ليندة، 2009م،ص204)، أما الفعل المضارع فهو للدلالة على الاستمرارية في الصبر على حكم القدر ،وهنا يأتي التناسق بين تشكيل أعمدة القصة الشعرية التي طرفاها الفعل الماضي والمضارع ،وتبدأ دلالة قسوة وألم (الوحدة) بذلك التفاعل بين الحيوان (الظبية) الأنثى والشاعرة التي تعيش بدون خليل أو حبيب ،وتدلك لفظة(صاحب) على ذلك المعنى المختزن في قلبها حباً وصبابة.

ويدلنا على ما للغة من أثر عظيم في نفوس اليهود في الأندلس أنهم أتقنوها أيما إتقان ، وبرعوا في فنونها وقوافي الشعر وأوزانه، وقد شغفوا بتعلمها ،ولا أدل على ذلك مما رواه صاحب الذخيرة من أن الشاعر الأندلسي أبو عامر بن شهيد كان أستاذاً ليهودي اسمه يوسف بن اسحق الإسرائيلي يعلمه الشعر والأدب (الشنتمري، 1997م،ق1م1،ص233-234) ، ذلك الأديب البارع في اللغة والأدب ، وهذا يقودنا إلى حقيقة مهمة جعلت من يهود الأندلس ما ينهل منهم في الدراسات النحوية واللغوية ، فنهضت وازدهرت، ووصلت إلى مرحلة النضوج، (هنداوي،إبراهيم موسى، 1963م،ص9)، ويبدو أن من الدوافع المهمة التي دفعت اليهود في الأندلس إلى تعلم اللغة العربية وإتقانها أنهم((أرادوا تسلق المناصب الإدارية في الدولة العربية الإسلامية عامة وبلاد الأندلس خاصة...والطريقة المثلى للتقرب من الحكام)) ، (شرقي،علي عطية، 2012م،ص503) ،لقد كانت لغتهم في الشعر العبري تحمل ذلك التعدد في الأغراض الشعرية ،والتي كانت على يدي يوسف ابن إسماعيل بن نغرلة اليهودي ، وله قصب السبق-كما يقال- في تطعيم الشعر العبري بفنون جديدة اقتبسها من الأدب العربي ((كالشعر القصصي والخمريات والإخوانيات ،والغزل، ووصف المعارك، ووصف الطبيعة، والرثاء، وتعد خمريات ابن نغريلة من أحسن ما كتب في العبرية في هذا الفن من الشعر، وقد كتب حوالي نحو تسع عشرة قطعة)) ، (عبد المجيد ،محمد بحر، 1970م،ص45)،وقد أنشد صاحب المسهب لفرط حبه له بعد أن قتله صنهاجة أصحاب الدولة بسبب استهزائه بالمسلمين والمساس بالقرآن الكريم قوله : (المغربي،ابن سعيد، (د.ت)،ج2،ص114).

يا غائبا عن ناظري لم يغب عن خاطري رفقا على الصبِ
فماله في البعد من ســـلوةٍ وماله سول ســـــوى القـــربِ
صورتَ في قلبي فلم تبتعـدْ عـن ناظـــرِ الفــــكرةِ بالحـــبِ
ما أوحشتْ طلعة من لم يزل ينـقل من طـــــرف ِإلى قلـــبِ

هذا فضلاً عن أن شعر اليهود لم يكن يقف عند حدود معينة وبخاصة فيما يتعلق بالاقتباسات والإشارات الكثيرة إلى ((النصوص التلمودية وشروح العهد القديم ...وقلما كانوا يقتبسون من التلمود، ولم تكن هذه

الظاهرة في الشعر العبري الأندلسي سببها جهل الشعراء بالتلمود، وإنما كان تقليداً للعرب الذين كانوا يقتبسون من القرآن الكريم أكثر من اقتباسهم من الحديث الشريف))، (عبد المجيد،محمد بحر، 1970م،ص36).

ولشديد حب شعراء اليهود بالإسلام اعتنق بعضهم هذا الدين العظيم ،وانعكس ذلك إيجاباً على شعرهم بأبيات قرضوها سواء بمدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو تضمين شعرهم ألفاظاً من القرآن الكريم ، من مثل ما نظم اسحق بن إبراهيم بن سهل الإشبيلي(ت649هـ) ، وهذا يدلّ دلالة قاطعة على تعلقهم بهذه اللغة العظيمة التي ملكت قلوبهم قبل عقولهم ، وأنشد بعضهم له قوله : (عبد الله ،يسر عبد الغني ، 2003م،ص31).

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلي فأسقيتني بالبعد فاتحة الرّعد
فبالله برد ما بقلبي من الجوى بفاتحة الأعراف من ريقك الشهد

وكان مما صرح به أيضا بانتمائه للدين الإسلامي، وأنّه نسخ سائر الأديان والشرائع، منها شريعة موسى عليه السلام قوله: (عبد الله،يسر عبد الغني، 2003م،ص32).

تسليت عن موسى بحب محمد هُديت ولولا الله ما كنت اهتدي
وما عن قِلًى قد كان ذاك وإنما شريعة موسى عُطّلت بمحمدِ

ومما يدل على سعة ثقافته الإسلامية والتي أثارت النص الشعري لديه أيضا لفظة (الكوثر) في قوله : (جلال، ألفت محمد، 1986م،ص14).

لله نهر ما رأيت جماله إلا ذكرت لديه نهر الكوثر

هذا الترابط النصي هو ترابط جاء داخل النص الشعري الذي يتضمن العديد من العلاقات المتلاحمة ،والتي تكوّن فهماً للقارئ ،ويؤدي غرضه ذلك الرمز (الكوثر) وهو نهر وهبه الله سبحانه لنبيه ،يحمل في طياته شد انتباه الذهن في المتلقين بقيمته في نفوسهم وبالتالي فإن ((حدود النص أحد الشروط المهمة التي توضح حدود النص الآخر، ومن دونها لا يمكن تحديد العلاقة مع النصوص الأخرى ضمن ظاهرة التناص)) (كلسمان،فولفغنغ وآخرون، 2016م،ص40)،على أن بعضهم لم يكن يهوى الدين الإسلامي ، أو يرضى به دينا بديلا عن دينه ، فكان يكيد له المكائد ،ويحاول أن ينظم فيه شعرا يسيء له، من مثل ما فعل إسماعيل بن يوسف بن نغرلة اليهودي بقوله : (المغربي،ابن سعيد، (د.ت)،ج2،ص114).

نقشت في الخد سطرا من كتاب الله موزون
لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

أما قواعد اللغة العربية فقد كانت مثاراً لإنشاء نصوص شعرية في بيان محاسنها وفضائلها، فكان اليهود يتغنون بمعرفتهم بأسسها وصناعتها، ويفتخرون بمعرفتهم بالنحو العربي وبقواعده، ولنقرأ من شعر إبراهيم بن سهل الإشبيلي، إذ يقول في هذا الشأن : (عبد الله،يسر عبد الغني، 2003م،ص51).

أموسى أيا بعضي وكلي حقيقة وليس مجازاً قولي الكلّ والبعضا
خفضتَ مكاني إذ جزمتَ وسائلي فكيف جمعت الجزَم عنديَ والخفضا

الطاقة الكامنة في هذين البيتين هي طاقة إيجابية شاملة لأنها طرزت بفنون البلاغة البديعية من مثل المقابلة بين (بعضي-كلي) ،و(الكل- والبعضا) و (الجزم – والخفضا)، وهذه الصورة التي ينقلها الشاعر بأدق تفاصيلها للمتلقي حتى يعيش في جو من جمال اللغة، والحقيقة أنه يقدّم حزمة مثيرة من معرفته وثقافته التي اتسعت لقواعدها ، حتى قال فيها أيضا : (عبد الله ،يسر عبد الغني، 2003م،ص42).

تنأى وتدنو والتفاتك واحدٌ كالفعل يعمل ظاهراً ومقدّرا!

لقد سحرت اللغة العربية وكانت من أشد ما أثار في يهود الأندلس إنشاء تلك النصوص الجميلة والفذة التي نسجت بماء الذهب، وحقيقة أنها أعجبتهم لأنهم وجدوا فيها ضالتهم التي فقدوها حتى في لغتهم العبرية، لأنها لغة تعبر حقا عن وجدانهم ومشاعرهم، وتبرز قيمتهم بين أبناء جنسهم وحتى بين الأندلسيين أنفسهم.

المحور الرابع: <u>الإشارات في النظائر الدلالية</u>

لكل نصّ دلالة ما تؤهله للولوج إلى المعنى ، وما ينشأ عنه من الإشارات الدالة أو العلاقات المعجمية التي تنتمي لها الكلمات التي تغلف النص بمجمله، ولابد لأي نص من أن تكون له دلالة تضمن له تلك الجمالية المفعمة بالحيوية والحركة والديناميكية عبر تنقلات، وإشارات ينفرد بها النص تحكم جوانبه

المعرفية والمعلوماتية وتنتقل من فكرة إلى فكرة ما عبر ارتباط حيثيات الموضوع وأقطابه المتصارعة، واختطاف الضوء القابل للتفسير عبر تلك الدلالات المهمة وهي بدورها ((تشير إلى العلاقة الدلالية بين كلمات عموم النص وتعابيره ،وما تؤثر في معناه ،وتصبح الإشارة القوية ضمن خيوط موضوع النص)) (كلسمان ،فولفغنغ وآخرون، 2016م،ص156)،ولابد للوصول إلى النظائر الدلالية واكتشافها من قراءة النص قراءة متفحصة ودقيقة ،((وذلك لأن هذه الإشارات لا تسمى أو تذكر علنا في النص ،وإنّما تستنتج من خلال معنى جمل النّص)) (كلسمان،فولفغنغ وآخرون، 2016م،ص156)، وهذه الإشارات في النظائر الدلالية أثارت بشكل واضح في إنشاء تلك النصوص الشعرية الأندلسية ،تلك التي وقفت عند ما قيل في اليهود بصفة خاصة وحملت في طياتها دلالات تفعيلية إشارية استثارت المتلقين ، وقد ظهرت في امتعاض المسلمين من تولية اليهود زمام الأمور وتحكمهم في شؤون الدولة ، ورفضهم لهذا الأمر ،ولنقرأ شعر الحسن بن الجد قيل في رفض تسلّط اليهود على رقاب المسلمين مطلعه : (الشنتمري، 1997م،ق2م1،ص562).

تحـــكمت اليـــــهود على الفــــروج   وتاهـــت بالبـــغال وبالســــروج
وقامــــت دولـــــة الأنـــذال فيـــنا   وصـــار الحـــكم فيـــنا للعلـــوج
فقـــل للأعـــور الدجـــال هـــذا   زمانـك إن عزمـت على الخـروج

وتظهر الإشارات الدلالية في تلك الألفاظ التي تتعلق بعموم النص، وهي(البغال تقابلها العلوج) و(الأعور الدجال يقابله الخروج) ،والنص هنا يثير المتلقي في قضية مهمة طرفاها (اليهود والمسلمون) في تنازع الإرادة والحكم ، والمقاطع النصية تتحكم في أداء المعنى من خلال اختيار الكلمات المؤثرة للدلالة على ما لليهود من ضرر في إقصاء الأندلسيين عن الحكم ،وتولي زمام أمور الدولة ،فكانت النظائر الدلالية لمرادفات جملة (دولة الأنذال) تشير إلى محتوى تركيبها ،وما تحدثه من تأثير الخطاب على المخاطبين إن استمر هذا الوضع على ما هو عليه وإلا ستؤول الأمور إلى ما لا يحمد عقباه ،إذن دلالة هذه الكلمات هي التي تتحكم بالنص، ولها القدرة على إثارة المعنى بقوة، ولولاها لما كانت هناك إثارة البتة ولتمزق النص ،وذابت قدرته على إتمام الفكرة ،وحتى يعمد منشئ النص إلى تقريب صورة الواقع والأحداث يأتي بـ (الأعور الدجال) ذلك الذي سيخرج آخر الزمان بعد أن تصل الأحوال لأسوأ ما يكون ،فيكوّن بذلك فرصة سانحة للتأثير والإثارة.

وعلى افتراض أن النص بكل مكوناته وصياغته قابل للتغيير ،فمن المستحيل أن يتغير المنهج الثقافي والمعرفي اللذان هما طرفا المعادلة النصية التي تنتج الأفكار والرؤى ،وسواء كان المعنى مقصوداً وموجهاً أو مفتعلاً ،فهو يحقق غايته ويعمل الفكر في مجمل أدائه في استيعاب قضية من القضايا المهمة التي تشغل المجتمع سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم غير ذلك ،تجربة ذاتية أم تجربة مجتمع بأكمله ،وهذه هي مهمة النص الذي يحظى بالإثارة دون غيره من النصوص التقليدية الأخرى والتي يكون دورها محصوراً بين مربع واحد أو بزاوية محددة لا تخرج عنه.

لقد كانت اليهودية في الأندلس تحظى بتغلغل عجيب لم يستفق له النّاس ولم يعيروا لها بالاً حتى أخذت الأمور تسير على غير هدى وبصيرة، وانحرف بعضهم حتى عن دينه ومبادئه واتخذوا أهواءهم آلهتهم، وصاروا محكومين لليهود مع أنهم يعيشون في ظل الإسلام وتحت حكمه، ووصل النفاق بهم إلى حد الكفر وقد أفصح عن هذه الحقيقة ابن خيرة القرطبي لإسماعيل بن نغرلة، بقوله: (الشنتمري، 1997م،ق1م1،ص765).

أديـــن بديـــن الســـبت جهـــراً لديـــكم   وإن كنـــت فـــي قومـــي أديـــن بـــه ســـــرا
وقد كـــان مـــوسى خائفـــا ومتـــرقـــبا   فقيـــــراً وأمّنـــت المـــخافـــة والفـــقرا

الإشارة الدلالية هنا تتضمن استيعاب النص من خلال إنجاز النظير في تنفيذ أحداث كامنة صنعته لفظة (السبت) وهي نظير لدين اليهود، وهذه المشاركة وإن كانت هزيلة من الشاعر لأنها ستؤول به إلى بغض الأندلسيين له، بل قد تصل إلى قتله، فهي تدل على جرأة منه في اختيار أسلوب الدلالة الصريحة المباشرة، ولكنها في الوقت نفسه تنأى بالشاعر عن خلق المسلم الذي يكون ظاهره وباطنه سواء.

إنّ هذه الإشارات الدلالية في النص التي تقتضي النظير المناسب ما هي إلا ((إشارات التنفيذ الكامنة...يفهمها ويستوعبها القارئ بوصفها إشارات ضمنية وإشارات تصنع الترابط الأساسي والترابط الراجح مع أجزاء النص الأخرى واللاحقة أثناء القراءة)) (كلسمان،فولفغنغ وآخرون، 2016م،ص194).

وتظهر فائدة تلك الإشارات الدلالية في إثارة نص ما، لكي تعبر عن فائدة أو مقاصد اتصالية، وليس بقصد التضليل أو الإرباك في النص، وهذا ما فعله ابن سهل اليهودي الأندلسي في قصيدته التي يستحث فيها المسلمين على الدفاع عن إشبيلية عندما اشتد عليها حصار الإسبان (645هـ) بقوله: (عبد الله ،يسر عبد الغني، 2003م،ص35).

يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابرا عن كابر
إنّ الإله قد اشترى أرواحكم ويهنكمو ثواب المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الأعصر

لقد كانت تلك الأبيات وكأنها تحفز الأندلسيين عن الذب عن أرضهم إشبيلية وتحض أرواحهم فداء وحبها لها لطرد الإسبان منها وقتالهم ،ويذكرهم بأسلافهم الذين كانت لهم صولات في ميادين القتال ، فالنص هنا يحتمل عدة إشارات مهمة تقف في موضوع مهم أراد الشاعر إثارة النص بالدخول إلى عمق الفكرة بتلك الألفاظ التي تشحن النص شحنات مهمة وفعالة في سبيل الوصول إلى غاية كبرى ،هي كسر حصار إشبيلية ،وأن لا يسلموا هذه الأرض للأعداء، وقد تكون المسألة عصية على المسلمين وهم يتعرضون لتلك الشدائد المتتالية ، ولكن بالرغم من أن الشاعر (يهودي) إلا أنه استشعر خطر الأعداء الذين ما فتئوا يكيدون للمسلمين ويهنوا عزائمهم ، وعندما نقرأ الأبيات نجد الإشارة إلى وجود حدث ما سنعرفه لاحقاً في النص ،والذي يتمحور حول كارثه ستصيب إشبيلية إنْ لم يدافع المسلمون عنها بكل ما أوتوا من قوة ،وهنا تأتي توقعات تطور النص بالإسناد إلى تلك الإشارات والمحفزات المتعاقبة والتي تبدأ في قوة النداء (يا معشر العرب)، وهو تذكير بالعرب هم من هم إنهم أحفاد الأبطال، ومن ثم (أن الإله قد اشترى أرواحهم) ،ونحن مستمرون بالقراءة سيتبادر إلى أذهاننا، وكأننا دخلنا ساحة المعركة ،وهنا يأتي التصوير الحي للفكرة ،وهي بدورها ستوقظ المشاعر والأحاسيس وتجعلها ملتهبة متشوقة للقتال ،ووجود إشارات تناظرية دلالية تقف خلف النص تقويه وتدعمه مثل (شيم الحمية، ثواب المشتري، قديم الأعصر)، هي الكفيلة بإتمام الإطار العام الذي سينطلق منه العزم والإصرار في سبيل تحقيق النصر على الأعداء، وكما قيل ((يستخدم الشاعر الكلمات ليعبّر لا عن معناها فحسب، بل كذلك عما وراء معناها...)) (برتليمي،جان، 2011م،ص289).

ومن الإشارات في النظائر الدلالية نطالع قول أبي إسحق بن إبراهيم الإسرائيلي في ابن هود، يصف راياته السود : (المغربي،ابن سعيد، (د.ت)،ج1،ص270).

أعلامُهُ السُّودُ إعلامٌ بِسُؤْدُدِه كأنها فوقَ خَدّ المُلك خِيلانُ

نستشف من هنا عمق الدلالة التي أراد الشاعر أن يفصح عنها في غرض المدح ضمن إشارات التشبيه التي زادت المعنى حلاوة وبهاء وجمالا ؛ فالأعلام السود تدل دلالة واضحة على ما لهذا اللون من العلو والرفعة والمنزلة العليا التي حظي بها الممدوح ،ولا يليق السؤدد إلا بالسواد ،وهنا يأتي بالنظير الدلالي لينسجم مع الحدث الكلامي الرامي إلى تأصيل المعنى الذي يرتبط بالجناس التام في (أعلام- وإعلام) ،والذي يقوم بدوره هنا في ((تزويد النص بغريب اللغة من خلال الإتيان بألفاظ متشابهة الحروف مختلفة المعنى)) (محمد،د.عزة شبل، 2009م،ص130)، والانفعال في الخطاب المتوافق مع الحدث الرئيس ((من خلال وضع الكلمات الغريبة المتجانسة في علاقات دلالية فيما بينها)) (محمد،د.عزة شبل، 2009م،ص130)، ليشكل صورة شعرية مفعمة بالوصف.

المحور الخامس: السياق النصي

لقد أدرك الأصوليون أهمية السياق وعلاقته بالمعنى ((فهو يتدخل في الإنجاز ،ويكاد يكون فهم الخطاب أحياناً موقوفاً عليه)) (أوشان،علي آيت، 2000م،ص115)،لذا فإن إنشاء أي نص أدبي لابد من أن يتأثر بشكل مباشر بالسياق الذي ينطلق منه ، والعناصر الأساسية لهذا السياق تتحدد في كل من الباعث (المرسل)، و المتلقي والمقام الذي يتحكم فيه ،ويمكن للمتلقي أن يفهم تأويل المعنى من خلال توافر معلومات واضحة لسياق المعنى ((وتكون أمامه حظوظ قوية لفهم الرسالة ، وتأويلها أي وصفها في سياق معين من أجل أن

يكون لها معنى)) (خطابي،محمد، 2006م،ص297) ،وهذا المعنى يتحقق من خلال الجملة ((فإنّ معنى الجملة يسبق دائماً معنى الكلمة منطقياً)) (لاينز،جون، 1987م،ص52).

ويوفر الشعر لنا ضمن السياق نصوصاً مختلفة في سياق مناسبة ما أو حدث كلامي أو وصف، وهي أشبه بالتوثيق التاريخي لفترة من فترات خلت من الزمن الماضي ففي التفاتة من أولئك الشعراء اليهود الذين أنتجت قرائحهم شعر الغزل، ومدى تأثرهم بالشعر العربي الأصيل والثقافة الإسلامية، وضمن السياق النصي الموسيقي نطالع قول نسيم الإسرائيلي : (التلمساني، 1995م،ج5،ص68).

يا ليتنـــــي كنـــتُ طـــيراً أطـــيرُ حتـــى أراكـــا
بمـــن تبـــدّلـــت غيـــري أو لم تحـــلّ عـــن هواكـــا

السّياق هنا يتضمن اختيار حكاية تعلق الشاعر بمن يحب ،وذله يأتي من اجتماع ذلين (ذّل العشق، وذل اليهودية) (التلمساني، 1995م،ج5،ص69)، وكان هذا سبب في رقة نظمه ،حتى اختار قافية الألف وحرف الروي الكاف في (أراكا) و(هواكا) والمفترض أن القارئ يتخيل المشهد عبر الدلالات اللفظية للجملة؛ لتحقق بذلك نغماً موسيقياً متوافقا مع سياق الاشتياق والحب ، وتحول من العلاقة الجسدية إلى العلاقة المكانية التي ترتبط بالطائر ،وتعلقه بالمحب يأتي من قيمة ياء النداء المردفة مع (ليت) التي للتمني ، وهو مأخوذ من قيمة الشعر العربي الذي لطاما أتحفنا بنماذج كثيرة اتخذت من الطير والطائر لها عنواناً سواء أكانت في مطالع قصائدهم أم في أثنائها.

ويأتي السياق في موضع آخر، ليبيّن اهتمام الأندلسيين بالنسب في محاولة للتقرب من اليهود في بعض الأحيان، وذلك عندما هيمنوا على مقاليد الحكم، ومن أولئك الشعراء الشاعر الأندلسي ابن خيرة القرطبي عندما أراد أن يشيد بإسماعيل بن نغرلة اليهودي، ويتقرب إليه، عندما قال شعراً جعل من نسب اليهود في الأندلس إلى نبي الله موسى عليه السلام، إذ يقول في هذا الشأن: (الشنتمري، 1997م،ق1م1،ص765).

ومـــن يـك موســـى منـــهم ثـــم صـنوه فقـــل فيـــهم ما شـــئت لـــن تبـــلـغ العشـــرا

السياق اللغوي هنا أحكم قبضته في فهم المعنى المراد الذي أراد الشاعر إيصاله للمتلقي في فهم معين، وقصد يختاره الشاعر، وكأن الحدث الخطابي قد أسند إلى المخاطب لمقتضيات السياق النصي؛ لغرض خلق جو من الثناء والمدح ضمن الخطاب الايجابي.

ومن مثيرات النص أيضاً وضمن سياقه فيه الشاعر إلى استثارة المتلقين وهممهم في قضية ما يفيض بها قريحته في النيل من اليهود والثورة ضدهم، ونلمح ذلك الأمر عند شعراء الأندلس، ومنهم أبو إسحق الإلبيري الذي نظم قصيدة في حق ابن نغرلة اليهودي ذلك المتسلط المتآمر على ابن باديس يقول في مطلعها: (الداية،محمد رضوان ، 1991م،ص108).

ألا قـل لصنهاجة أجمعين بـدور الزمـــان وأســـد العريـــنْ
لـــقد زلّ سيـــدكم زلـــة تقـــرّ بهـــا أعيـــن الشامتيـــن
تخـــيّر كاتبـــه كافـــرا ولـــو شـــاء كان من المسلمـــين
فـــعزّ اليـــهود وانتـــخوا وتاهـــوا وكانـــوا من الأرذلـــين

وإذا ما نظرنا إلى عمق النص بوصفه وحدة شكلية خارجية ترسم هدفاً محدداً ضمن السياق النصي، واختيار الشاعر أيقونة الغرض الرئيس في فضاء التقنية المتناسقة للتسلسل في الفكرة، والسير بخط مستقيم للوصول إلى الهدف وإسناد النص الشعري إلى الأخبار المتعاقبة لفهم الدخول في سياق تصورنا للخطب العظيم بتولي اليهود زمام الأمور، ويقسّم الشاعر النص على أربعة مقاطع فيما اخترناه من أبيات شعرية ،وهي كالآتي:

المقطع الأول: الذي حدد فيه اختيار المدينة (صنهاجة) ؛ لينطلق منها إلى...

المقطع الثاني: والذي يتابع فيه الشاعر قضية خطأ ابن باديس وشماتة الشامتين.

المقطع الثالث: مرتبط بضيق أفق الاختيار للكاتب (كاتبه كافراً) ،وهو عنصر مستقل يدور في (الذات-الآخر)،ويضم المقطع الكلمات(تخيّر) ،(كافراً)، وتقابلها (شاء)، (المسلمين) ويظهر ذلك في الشكل الآتي:

وكأن الشاعر يذهب بالنص لتجزئة الحدث على جزأين، جزء صائب وجزء خاطئ لينتقل بنا إلى المقطع الرابع.

المقطع الرابع: وهو مقطع اختزل فيه الشاعر علو كعب اليهود المفضي إلى البؤرة المركزية للحدث يقابله التوهان والرذيلة.

وتبدو هذه المقاطع على درجة من الترابط في النسق السياقي، ويحيل النص على عاملين، الأول مرتبط بأحداث النزوع إلى العيش تحت طائلة الحكم اليهودي وسيطرتهم على مجريات الأحداث والتحكم بدفة الحكم،والعالم الثاني الذي سيعيشه المسلمون من ضعف وخور وذل ورذيلة ، وهنا يدور النص في محورين الأول يخبرنا بضعف المسلمين في الاختيار والثاني بقوة اليهود ودهائهم وانتزاع السلطة والسلطان معاً.

ولذا كان التحذير واضحاً من قبل الأندلسيين بخطر هؤلاء اليهود ،فهذا ابن حزم الأندلسي ينقل لنا ما قيل فيهم على لسان أبي نصر بن نباته : (عباس،د.إحسان، 1960م،ص 45-46) .

فـــلا تحقـــرن عـــدواً رمـــاك وإن كـــان فـــي ساعـــديه قصـــر

فـــإن الـسيـــوف تـــجز الرقاب وتعـــجز عمـــا تنـــال الإبـــر

وفي رد ابن حزم قوله: ((وتحت ذاك الختل والختر والكيد والمكر، كاليهود الذين لا يحسنون شيئاً من الحيل ولا آتاهم الله شيئاً من أسباب القوة، وإنما شانهم الغش والتخابث والسرقة على التطاول والخضوع مع شدة العداوة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم)) (عباس،د.إحسان، 1960م،ص46).

ويقتضي السياق النصي في أحايين آخر إلى تقديم منهج في الشعر يفضي إلى تلك الجرأة التي امتلكها اليهود في تجاوزهم على الأنبياء وقتلهم المسيح عيسى (عليه السلام) ، وقد نقل ابن سعيد الأندلسي شعراً نسبه لابن يوسف النغريلي، إذ يقول : (المغربي،ابن سعيد، (د.ت)،ج1،ص115).

أيـــّها الغادرون هلا وَفيتم وفـــديتمْ شـــبه الذبيح الذّبيـــحا

إنْ يكن قتلكم لهُ دونَ ذنـبٍ قـد قتلنـــا من قبلِ ذاكَ المَسيحا

ونبيـــا من هاشـمٍ قد سممنا فـَرّ من أكـــلة الـذراعِ طريـــحا

لقد أثار النص هنا حقد اليهود ولؤمهم ومكرهم وكيدهم للأنبياء، والسياق الذي قيلت فيه هذه الأبيات أتى في معرض قتل أبيه في غرناطة، وصلب في نهر سنجل،ف هرب إلى إفريقية ، وكتب من هناك إلى أهل غرناطة شعره المشهور (المغربي،ابن سعيد، (د.ت)،ج1،ص 511) ،وكأنه في هذه الأبيات يحاول أن يوصل رسالة مغزاها حب الانتقام من أولئك الذين قتلوا والده،وينتظم النص في ثبات أعمدته ونهايات الأبيات تتوافق مع بداياتها من خلال صيغ لغوية متعددة موجودة في النص ،ويبدأ بياء النداء (أيها) ، لكي يصل على مبتغاه في تتابع جملي متصل للفظة (الغادرون) ذلك التخصيص الذي يكون أكثر وقعا في المخاطبين مع ضبط دلالة الصيغة التي ينطلق منها النص إلى آفاق أرحب في بلورة فكرته للوصول إلى المعنى بأسلوب يحمل طابع الحدية الذي ينبئ عن مدى حقد اليهود وبغضهم للمسلمين ،وبذلك يحقق النص ضمن السياق سلسلة تعاقبية متصلة بنسيج الجمل والعبارات ضمن المؤشرات المكانية والزمانية وهي كفيلة بخلق التفاعل بين النص وقارئه ونمثل هذا التفاعل بالشكل الآتي:

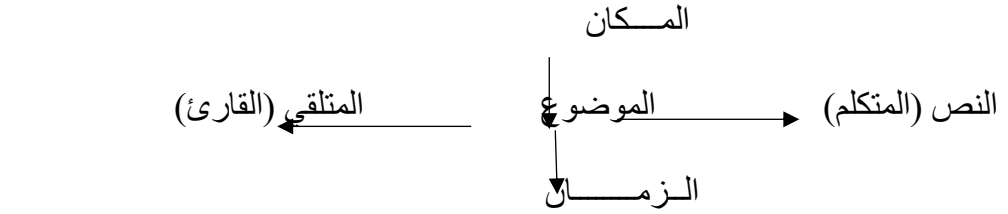

وفي نص آخر نطالع بيتي شعر لابن سهل يقول فيهما : (عبد الله،يسر عبد الغني، 2003م،ص71).

كـــان محيـــاك لـــه بهجـــة حتـــى إذا جـــاءك ماحـــي الجمـــال

أصبـــحت كالشمـــعة لما جنى منـــها الضيـــاء اســـود فيـــها الذبال

ويأتي السياق النصي في إثارة النص بما يحمله من دلالات على ثلاثة مستويات ،مستوى المفردة، والمستوى الجمالي والمستوى البلاغي، وهذه المستويات تكمل بعضها بعضاً ،وتألف وحدة متجانسة من التلاحم النصي حتى ينتقل بنا الشاعر من الخطاب الذاتي إلى الخطاب الذي يحمل طابع الإخفاء خلف أقنعة (التغيير) الذي يتحول من الشعور بالتفاؤل إلى الشعور السوداوي المؤسف، ويظهر ذلك في الفعل (كان)

للدلالة على الماضي الذي هو مصدر للجمال ،وقد تحول بفعل ذبول الشمعة التي تمثل تآكل العمر وهي المصدر المأساوي الذي تتداخل فيه دوال تحيل إلى المعنى المظلم المتداخل بالسواد، فالمشهد هنا يحتمل لوحتين مختلفتين، الأول تمثل الإشراق والحيوية، واللوحة الثانية التي تمثل الانكسار المفضي إلى (الذبال).

الخاتمة

وقد توصل الباحث إلى عدد من النتائج تمثلت بالآتي:

1. امتاز شعر اليهود في الأندلس بأنه شعر يمثل تلك المرحلة المهمة من مراحل تعلقهم بالبيئة التي عاشوا فيها، فانطلقوا منها في بيان مقدرتهم الشعرية، فكانت تلك البيئة مثاراً لإنشاء تلك النصوص الأدبية.
2. المثيرات التي انطلق منها شعراء اليهود انتظمت في بيان إبداعهم في نصوص بأعينها فكانت الإيحائية أولها جمالاً وتأثراً.
3. ألهمت اللغة العربية أولئك الشعراء الذين فاضت قريحتهم بها فاختاروها ضمن هدف النص وتحقيق التأثير في المتلقي .
4. لم يفت شعراء الأندلس الاهتمام باليهود الذين عاشوا معهم ونقدهم وبيان مثالبهم أو محاسنهم فاسندوا النص الشعري لعدد من الخطابات الموجعة التي بينت حالهم وأفعالهم، وهي مرحلة من مراحل تاريخ يهود الأندلس التي وثقوها.
5. التحولات الجمالية في شعر اليهود كانت سبباً في استثارة المتلقي، ورفد الخطاب الأدبي بالطاقات الإيحائية التي انفرد بها شعرهم، وهي تنبئ عن عظيم معرفتهم وقدرتهم في هذا المجال من حدود النص الأدبي.
6. الإشارات الدلالية أهلّت النصوص الشعرية اليهودية للولوج إلى المعنى وما ينشأ عنه من علاقات معجمية تنتمي إلى النص بمجملة، وكذا تظهر تلك الإشارات بتلك الألفاظ التي تتعلق بعموم النص أيضاً.
7. العناصر السياقية في النص تتحدد في كل من المتكلم والمتلقي، ويمكن أن يفهم تأويل المعنى من خلال توافر معلومات واضحة للسياق داخل النص.
8. إذا أردنا معرفة المثيرات فلابد من الولوج إلى حياة اليهود البيئية والاجتماعية والثقافية، وبيان أهم ما يعتورها من خطوط بيضاء أو حمراء أو سوداء، وهي تحدد بشكل أو بآخر أهمية النص الشعري من عدمه.
9. أثارت أفعال اليهود في الأندلس، وتصرفاتهم وشعرهم شعراء الأندلس فكان ردهم حازماً وموفقاً حدّ من اندفاعهم المفرط اتجاه الإساءة للإسلام والمسلمين.
10. العلاقات والمؤشرات الزمانية والمكانية في النص الشعري اليهودي قد أثرت الخطاب بجو من التفاعل بين المتكلم والمتلقي، وكانت من أهم المثيرات التي أثارت النص الأدبي.

ثبت المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

(*) وفي هذا الشأن رسالة شعرية بعث بها الشاعر الأندلسي إبراهيم بن محمد النفزي يستحث فيها أمير المسلمين في المغرب على العبور إلى الأندلس لتخليص المسلمين من حكم النصارى وتسلط اليهود، ينظر: قصائد غير منشورة في الاستصراخ والإصراخ / مجلة دراسات أندلسية (تونس ع 5 ،1411هـ- 1990م) ،ص80.

- ابن سلف ،أحمد بن محمد/أخبار وتراجم أندلسية ،مستخرجة من معجم السفر للسلفي ، (ت576هـ)،تحقيق إحسان عباس ،بيروت –دار الثقافة ،ط1، 1963م.
- الإبياري ،إبراهيم ،تحقيق /الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة ،القاهرة –دار المعارف،ط2،د.ت.
- إحسان، عباس ،تحقيق/الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى لابن حزم ،القاهرة ،مكتبة دار العروبة ،1380هـ-1960م.
- الأصفهاني ،العماد/ خريدة القصر وجريدة العصر،تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ،القاهرة- دار نهضة مصر للطباعة والنشر،د.ت .
- الداية ، د.محمد رضوان ، حققه وشرحه/ ديوان أبي اسحق الإلبيري الأندلسي (ت460هـ) ،دار الفكر المعاصر- بيروت،لبنان،ط1 ، 1411هـ- 1991م.

- أوشان ، علي آيت/ السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء،ط 1، 1421هـ-2000م.
- تلمساني ،لسان الدين بن الخطيب /نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب /شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له الدكتورة مريم قاسم طويل ،الدكتور يوسف علي طويل،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،ط1، 1415-1995م.
- جلال، ألفت محمد /أبو نواس الأندلس، ابن سهل الإسرائيلي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986م.
- خالدي، د.خالد يونس/ اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس(92هـ- 711هـ) ، الشارقة دائرة الثقافة والإعلام ،ط1، 2002م.
- خطابي، محمد/ لسانيات النص ،مدخل إلى انسجام الخطاب ،الناشر المركز الثقافي العربي –المغرب، الدار البيضاء ،ط2، 2006م.
- شرتح، د.عصام /مثيرات الخطاب الحداثي (قراءة نصية في الحداثة الشعرية) ، دار الخليج للنشر والتوزيع –الأردن ،عمان ،ط2002.
- الشنتمري، أبي الحسن علي بن بسام (542هـ)/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة ،1997م.
- عبد الله، يسرى عبد الغني، دراسة وتحقيق /ديوان ابن سهل الأندلسي ،دار الكتب العلمية ،بيروت- لبنان ط3، 2003م.
- عبد المجيد، محمد بحر /اليهود في الأندلس ،القاهرة –الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ،دار الكتاب العربي ،1970م.
- العيوني ،ابن المقرب ، جمال الدين أوعبد الله محمد بن علي/ ديوان ابن المقرب (ت629هـ) ،تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ،مصر،ط1 ،1383هـ-1963م.
- قياس ، ليندة، تأليف/ لسانيات النص ،النظرية والتطبيق ،مقامات الهمذاني أنموذجاً/ تقديم الدكتورعبد الوهاب شعلان ،مكتبة الآداب- القاهرة، ط1، 2009م.
- كلسمان ، فولفغنغ ، هايكوها وزندروف/ علم لسانيات النص ، ،ترجمة أ.د.موفق محمد جواد حسين المصلح،دار المأمون للترجمة والنشر- بغداد ،2016م.
- لاينز، جون/ اللغة والمعنى والسياق ،ترجمة د.عباس صادق الوهاب ،مراجعة د.يوئيل عزيز،دار الشؤون الثقافية العامة ،العراق – بغداد ،ط1، 1987م.
- محمد، د.عزة شبل، تأليف /علم لغة النص ،النظرية والتطبيق ،تقديم د.سليمان العطار،مكتبة الآداب- القاهرة،ط2، 1420هـ-2009م.
- مطهري،د.صفية/ الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،2003م.
- المغربي، لابن سعيد/ المغرب في حلى المغرب ،حققه وعلق عليه د.شوقي ضيف،ط4،دار المعارف ،د.ت.
- 22.برتليمي،جان/ بحث في علم الجمال ،ترجمة أنور عبد العزيز ،المركز القومي للترجمة ، 2011م.
- 23.شرقي ،د.علي عطية /أثر اللغة العربية في إسهامات اليهود والنصارى في الأندلس أثناء عهدي الخلافة والطوائف(دراسة تاريخية) ،مجلة الأستاذ العدد(203) لسنة 1333هـ- 2012م ،جامعة بغداد- كلية التربية (ابن رشد).
- 24.قصائد غير منشورة في الاستصراخ والإصراخ / مجلة دراسات أندلسية (تونس ع 5 ،1411هـ- 1990م).
- 25.مفتاح ،د.محمد/ التلقي والتأويل ،مقاربة نسقية ،المركز الثقافي العربي –بيروت،الدار البيضاء ،ط1، 1994م.
- 26.هنداوي، إبراهيم موسى /الأثر العربي في الفكر اليهودي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ،1963م.